عبد القادر ياسين ، **كفاح الشعب الفلسطيني قبل العام ١٩٤٨** ، (مركز الابحاث في منظمة التحرير الفلسطينية ، بيروت ، ١٩٧٥) .

[١]

* ليس من المهم ، حقا ، أن نستعرض فصول هذا الكتاب من زاوية تعرض مؤلفه للتاريخ الصرف ، لمراحل كفاح الشعب الفلسطيني قبل عام ١٩٤٨ ، ذلك أن عشرات من الباحثين الفلسطينيين والعرب ، قد أشبعوا تلك الزاوية تنقيبا ، واستفاضوا في الكشف عن خفاياها التاريخية الدقيقة ، ولكن من المجدي ، أن نتساءل هل أضاف المؤلف وجهة نظر جديدة الى مجمل وجهات النظر الفكرية ـ الاجتماعية التي عالجت الموضوع ذاته من قبل ؟ والسؤال الثاني ، هل تستحق وجهة النظر التي طرحها المؤلف اخراج هذا الكتاب الى النور ، وبالفعل ، فان نقدنا سينصب على هذه الناحية بالضبط ، ونستعير قول المدير العام لمركز الابحاث أنيس صايغ لنؤكد معه ، اننا لا نزال نشعر ان موضوع الكفاح الفلسطيني لا يزال يتسع للمزيد من الدراسات ، وذلك لأنه يحتاج : أولا ، الى المزيد من البحث والتنقيب والاستقصاء ، ويحتاج ، ثانيا ، الى المزيد من التحليل واستقراء المعلومات واستنطاق معانيها ص ٥ ، ونحن بدورنا نتفق مع الدكتور صايغ ، على الاسس نفسها ولكن نشترط الاسس الثانية أكثر ، وهي المزيد من التحليل واستنطاق المعلومات لتعرية معانيها ، والنظر اليها من زوايا جديدة وعديدة ، تخصب الرؤية العلمية في الموضوع عينه .

يقسم المؤلف كتابه الى أربعة فصول ، يتناول خلالها ، أولا : الخلفية التاريخية الاجتماعية للحركة الوطنية ، ثانيا : فجر الحركة الوطنية ، ثالثا : الحركة الوطنية بينما تستكمل ملامحها ، رابعا : الانحسار والأزمة . وسنلخص كل فصل على حدة ونضع بعض المعلومات التي نرى ضرورتها ، على هدي الأسس التي ذكرناها آنفا .

الفصل الاول ـ خلفية اجتماعية تاريخية : يرى المؤلف ، في هذا الفصل ، ان البرجوازية الصناعية الوطنية ، في سوريا الطبيعية ، بما فيها فلسطين ، كانت ، كفئة من طبقة ناشئة ، في أواخر القرن التاسع عشر ، تحاول ان تثبت كيانها وسط مقاومة عنيفة من الاستعمار التركي ورأس المال الاجنبي ص ٩ ، كما أن تطورها كان ضعيفا ، الى حد لم تستطع معه استخلاص أية مراكز هامة في ادارة البلاد ص ٩ ، ودفعها ضعفها هذا الى سلوك سبيل الجمعيات السرية التي لم تعتمد على الجماهير ، ومن ناحية ثانية كانت الملكية الكبيرة للارض ، جنبا الى جنب مع الاستثمارات الفلاحية الصغيرة ، اما الاستثمارات الكبيرة فكانت معدومة ص ١١ ، وقد سادت الوسائل العتيقة في الزراعة ، وسادت من ثم على القرية الفاسطينية ، علاقات اقطاعية متخلفة ص ١٣ ، ثم يورد المؤلف احصاءات مأخوذة من مراجع مختلفة ، للبرهنة على رؤيته ، ويفصل في طريقة عمل علاقات الانتاج هذه ، ليصل الى القول ، ان الانتاج الصناعي تميز بالضعف الشديد ، وكانت نسبة العاملين بالحرف والصناعات ، في جميع أنحاء سوريا ، عشية الحرب العالمية الاولى ، حوالي ١٠٪ من السكان ، وكان يقيم في المدن كبار الملاك والتجار والحرفيون والعمال ، ويستشهد الباحث «برأي» للمستشرق الروسي لوتسكي ليسجل : انه لم يكن هناك حد فاصل ، اي طبقي ، بين الاعمال الحرفية والزراعة ص ١٥ ، لذا فان الزعامة ، في أصولها ، زعامة دينية ـ عائلية ، وتضم كبريات العائلات من أمثال الحسيني ، والنشاشيبي والدجاني ، والخالدي ، وعبد الهادي ص ١٥ ، وبسبب هذه الاوضاع الاقطاعية العشائرية الدينية ، تولد لكل مدينة تقاليدها وتشريعاتها ورسومها وموازينها التجارية والاجتماعية الخاصة ص ١٧ ، ويورد المؤلف « رأيا » لانجلز في هذا المجال يقول فيه : ان القيمة الزائدة المكتسبة لم تكن مضمونة أمام جشع الحكام الطغاة والبشوات ، واذا كان هذا الشرط ، أي الأمان للقيمة الزائدة ، معدوما ، فان البرجوازية لم تجد التربة الخصبة لتنمو فيها ص ١٧ ، ومن هنا ظلت صلابة النضال البرجوازي ، ضد تركيا ، هشة وضعيفة .